

مجلة العلوم القانونية والاجتماعية

Journal of legal and social studies

Issn: 2507-7333

Eissn: 2676-1742

التصوف عند الأمير عبد القادر الجزائري

Sufism according to Amir Abd al-Qadir al -Jazairi

معيلبي عيسى *

جامعة محمد بوضياف المسيلة، (الجزائر)، aissa.mailbi@univ-msila.dz

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/04/01

تاريخ ارسال المقال: 2025/03/01

* المؤلف المرسل

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تتبع مراحل الفكر الصوفي عند الأمير عبد القادر الجزائري منذ طفولته إلى أن أصبح عالماً يُدرّس علوم الصوفية. و هذا بتتبع ارتقائه في مختلف مقامات التصوف و صولا إلى الأحوال التي اكتسبها نظير مجاهداته في طريق التصوف، كما وضعنا رأيه في قضايا خلافية طالما أثارت الكثير من الجدل حولها كفكرة وحدة الوجود ووحدة الشهود والحلول و الولاية. **الكلمات المفتاحية:** الأمير عبد القادر الجزائري، التصوف، وحدة الوجود، وحدة الشهود، الحلول، الولاية.

Abstract:

This article aims to trace the stages of Sufi thought of Amir Abd al-Qadir al-Jazairi from his childhood until he became a scholar who teaches Sufi sciences, and this by tracing his ascent in the various ranks of Sufism and reaching the states he acquired in return for his struggles on the path of Sufism, as we explained his opinion on controversial issues that have always raised a lot of controversy around them, such as the idea of the Unity of Existence, the Unity of Witnessing, Incarnation [Theophany], and Wilayah [Sainthood]

Keywords: Amir Abd al-Qadir al –Jazairi, Sufism, Unity of Existence, Unity of Witnessing, Incarnation [Theophany], and Wilayah [Sainthood].

مقدمة:

الأمير عبد القادر الجزائري هو شخصية وطنية عظيمة، يملك من المزايا و الصفات الكثير؛ فهو قائد عسكري ميداني بامتياز كما أنه مؤسس الدولة الجزائرية الحديثة ورجل سياسي بارع في مفاوضاته؛ كما له قدم راسخة في الأدب نثرا و شعرا؛ أما في علوم الدين فهو بحر زاخر، و خصوصا في علوم الأذواق و المكاشفات. و هو المجال الذي سنتطرق إليه في الفكر الصوفي عند الأمير عبد القادر.

إذ أننا نجد الكثير من الدراسات عن الأمير عبد القادر و خصوصا في الجانب التاريخي و العسكري ، بينما في الجانب الديني فالدراسات قليلة جدا. و في هذا المقال سنحاول دراسة الفكر الصوفي عند الأمير وذلك بمحاولة الاجابة عن الإشكالية التالية : هل كان الأمير في تصوفه مجددا أم مقلدا ؟ و هل كان تصوفه إيجابيا أم سلبيا ؟ و كذلك ما هو رأي الأمير في بعض المفاهيم الصوفية الخطيرة مثل: وحدة الوجود ووحدة الشهود والحلول و الولاية؟ و اتبعنا في معالجتنا لهذه الاشكاليات المنهج التحليلي و حاولنا جمع ما تيسر لنا من أفكار الأمير الصوفية لكي يتضح لنا منهجه و وسائله و غايته من سلوكه لطريق التصوف فتتبعنا مراحل حياته بداية من تلقيه العلوم الشرعية

و أجازته في بعض الطرق الصوفية و كذلك مجاهداته في طريق التصوف و الأحوال التي مر بها وصولاً إلى المقامات التي ترقى فيها في معارجه الروحي.

المبحث الأول: حياته و تصوفه

المطلب الأول: حياة الأمير عبد القادر

هو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى، يرتبط نسبه بالرسول صلى الله عليه وسلم¹، ولد يوم الجمعة 23 رجب 1222هـ - 1807 م، بقرية القيطن، وهي من ضواحي وهران ... منذ طفولته كان محل عناية والده، وكان يتميز بقدرات عقلية فائقة، " فقد كان يقرأ و يكتب عندما كان في الخامسة من عمره"².

في الثانية عشر من عمره، تمكن من حفظ القرآن والحديث وأصول الشريعة. وكان يحفظ الكثير من اللغة العربية، و قدرا وافرا من صحيح البخاري، أجازته في حفظه لذلك والده محيي الدين شيخ الطريقة القادرية. الذي كان يدرس بمعهد القيطن.³

عندما بلغ عبد القادر الخامسة عشر من عمره تزوج من ابنة عمه "لالا خيرة"⁴

في سنة 1823، وضع مع والده تحت الإقامة الجبرية بوهـران من طرف باي وهران، وذلك خوفا من خطر والد عبد القادر، نظرا لما رآه من الإقبال الكبير للأهالي عليه.⁵

وقد استفاد الأمير ووالده من هذه العزلة المفروضة عليهما، و"كرسا أوقاتهما لدراستهما المفضلة".⁶

في سنة 1825، أفرج عنهما باي وهران فقاما بالحج إلى مكة المكرمة. وبعد أن أتما حجهما، ذهبا إلى دمشق، وتعرفا هناك على كثير من علمائها وقرأ صحيح البخاري على الشيخ عبد الرحمان الكزبري وكذلك أخذ عبد القادر عن الشيخ خالد النقشبندي السهروردي أصول الطريقة النقشبندية، وبرع على يديه في علوم الشريعة والحقيقة.⁷

وبعد ذلك سافرا إلى بغداد، لزيارة قبر الولي عبد القادر الجيلاني، وأخذوا الإجازة بالطريقة القادرية على يد الشيخ محمود القادري⁸. ثم عادا إلى مكة المكرمة، وحجا مرة ثانية. ورجعا إلى قريتهما سنة 1828م. بعد عودة عبد القادر إلى موطنه، لزم بيته في عزلة دينية وكذلك قرأ الكثير من كتب التاريخ والفلسفة، واللغة، والطب.⁹

وعندما احتلت فرنسا الجزائر سنة 1830، هرع أهالي المنطقة الوهرانية إلى شيوخ الطرق الصوفية لقيادتهم في محاربة الإستعمار الفرنسي. وكان محيي الدين والد الأمير أحد هؤلاء الذين حملوا لواء الجهاد في منطقة معسكر¹⁰. وقد حارب الأمير إلى جانب والده حوالي سنتين وفي هذه الفترة برزت مقدرة عبد القادر القتالية وشجاعته، فتنازل له والده لكي يشغل هذا المنصب الخطير، ألا وهو حمل لواء الجهاد.¹¹

تمت البيعة الأولى للأمير في 27 نوفمبر 1832 م. ونظرا لاقتصار البيعة الأولى على نواحي معسكر، فقد عقدت البيعة الثانية العامة للأمير في 04 فيفري 1833. بعد أن أقبل الناس من كل حذب وصوب عند سماعهم خبر البيعة الأولى.¹²

حارب الأمير الإستعمار الفرنسي حوالي 17 سنة. وكانت معاركه التي خاضها أكثر من 20 معركة أما بالنسبة لقواته، فقد كانت مقسمة إلى قسمين: نظامية و غير نظامية

فالقوات النظامية كانت دائما على أهبة الاستعداد للحرب، أما القوات الغير نظامية فكانت تتكون من القبائل التي تعود إلى ديارها بعد انتهاء المعارك.¹³

إلا أن الأمير عانى- في السنوات الأخيرة من حربه -من قلة العدد والعدة. ولما ضيق عليه الفرنسيون الخناق انسحب إلى الحدود المغربية. ولهذا فقد طلبت فرنسا من السلطات المغربية تسليم الأمير عبد القادر بناء على المعاهدة التي جرت بينهما بعد معركة وادي أسيلي، التي انهزم فيها المغرب.¹⁴

لما وجد الأمير نفسه محاصرا من طرف القوات المغربية من جهة والقوات الفرنسية من جهة أخرى، أثر الاستسلام للفرنسيين في 23 ديسمبر 1847 م.¹⁵

كان من بين شروط استسلام الأمير " أن يحملوه مع جميع عائلته إلى عكا أو الإسكندرية".¹⁶ إلا أن الفرنسيين غدروا به وأخذوه إلى فرنسا، وسجن هناك مدة 04 سنوات. وبعد أن استولى الأمير " لويس نابليون" على عرش فرنسا أطلق سراح عبد القادر في سنة 1852 م.¹⁷

من ثم توجه إلى بروسة وأقام هناك، ونظرا لتوالي الزلازل فيها فقد اختار دمشق لتكون محل إقامة له.¹⁸ وحل بها سنة 1856 م. وبما أنه يحمل صفات ثلاث: " كونه شريفا من نسل النبي وعالما وزعيما للجهاد" فقد كان مركز اهتمام العلماء والمثقفين ونظرا لتجربتهم معه في علمه الغزير، فقد رجوا منه أن يفيدهم، ولهذا تكونت حلقة من 60 طالبا، وكان الأمير عبد القادر يرأسها و لا يتخلف عنها، ولم تكن دروسه مقتصرة على العلوم الدينية فقط، بل تعداها إلى الأمور العقلية من أعمال أفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة ولهذا ازداد به طلبته تعلقا، وله تبيجلا واحتراما.¹⁹

وفي دمشق ألف كتابه "المواقف" في التصوف، والذي تأثر فيه بشيخه محيي الدين بن عربي الذي تعود علاقة الأمير بمؤلفاته إلى مرحلة شبابه، وذلك بعد اعتزاله في بيته، عندما أنهى حجه مع والده فوجد الأمير في كتابه "المواقف" قد اقتبس بعض الأبواب على شيخه ابن العربي من "الفتوحات المكية".²⁰ كذلك كان لعبد القادر موقف مشرف في فتنة دمشق التي حدثت عام 1860 بين المسلمين والمسيحيين حيث أنقذ آلاف المسيحيين من الموت.²¹

وفي سنة 1862 قصد الحجاز وأقام بها متعبدا حوالي سنتين وتعرف هناك على الشيخ محمد الفاسي فأخذ عنه الطريقة الشاذلية، ولعبد القادر قصيدة بعنوان "أستاذي لصوفي" يشكر فيها الله على ما أولاه من فتح على يدي شيخه محمد الفاسي، ويصف فيها كذلك بداية ونهاية معارجه الروحي، ومطلعها:²²

أمسعود جاء السعد، والخير، واليسر
و ولت جيوش النحس ليس لها ذكر
فهو هنا يهنئ نفسه بلفظة "مسعود"، ويعتبر أن الخير قد أقبل عليه، والنحس قد أدير عنه.
وينتقل للحديث عن شيخه، و يصف بدايته معه، فيقول:²³

أتاني مربي العارفين بنفسه
و قال: فإني منذ أعداد حجة
ولا عجب فالشأن أضحي له أمر
لمنتظر لقياك يا أيها البدر
وقال: لك البشرى. بهذا قضى الأمر
فقبلت، من أقدامه وبساطه

هذا فيما يخص علاقته بالشيخ محمد الفاسي، في الحجاز. وبعد أن رجع إلى دمشق، أقام بها مداوماً على العبادة والتعليم إلى أن وافاه الأجل في 19 رجب 1300 هـ - 1883 م، ودفن إلى جوار الشيخ محيي الدين بن عربي.²⁴

المطلب الثاني: التصوف

الفرع الأول: مفهوم التصوف عند الصوفية

اختلف الصوفية في تعريف التصوف، فمنهم من عرفه انطلاقاً من أحوال البداية لسلوك الطريق الصوفي، ومنهم من ذكر في تعريفه الوصول إلى الجناب الأعلى. أما الفريق الثالث فقد جمع بين البدايات والنهايات. ولا يهمنا أن نتبع كل هذه التعاريف بل سنقتصر على تعريف واحد لكل فريق.

فالتعريف الذي بتكلم عن أحوال البداية هو ما نجده عند "أبو محمد الجريري" في تعريفه حيث يقول أن التصوف هو: "الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق ديني".²⁵

أما التعريف الذي يذكر الوصول إلى معرفة الحق -تعالى- فهو ما قاله "علي بن عبد الرحيم القناد"، الذي يرى أن التصوف: "نشر مقام واتصال بدوام".²⁶

ونخلص إلى التعريف الذي يربط بين سلوك طريق التصوف والوصول إلى الحضرة العلية وهو ما نجده عند "سمنون" حيث يقول في تعريفه للتصوف: "أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء".²⁷

ولا بد في سلوك طريق التصوف من القيام بمجاهدات عظيمة، والتي يقسمها "ابن خلدون" إلى ثلاث: مجاهدة التقوى، ومجاهدة الاستقامة ومجاهدة الكشف والاطلاع. فمجاهدة التقوى هي "الوقوف عند حدود الله... وحصولها في الظاهر بالنزوع عن المخالفات والتوبة عنها... وفي الباطن مراقبة أفعال القلب التي هي مصدر الأفعال ومبدؤها، أن يلم بمقارفة محذور أو إهمال واجب".²⁸

أما مجاهدة الاستقامة فهي: "تقويم النفس وحملها على التوسط في جميع أخلاقها حتى تهذب بذلك، وتتحقق به فتحسن أخلاقها، وتصدر عنها أفعال الخير بسهولة وتصير لها آداب القرآن والنبوة بالرياضة والتهديب خلقاً جبلياً، كأن النفس طبعت عليها".²⁹

ومجاهدة الكشف والاطلاع هي: "إخماد القوى البشرية، وخلع الصفات البدنية بمنزلة ما يقع للبدن بالموت، ثم محاذاة شطر الحق باللطيفة الربانية، لينكشف الحجاب وتظهر أسرار العوالم والعلوم واضحة للعيان".³⁰

الفرع الثاني: مفهوم التصوف عند الأمير

يرتبط التصوف عند الأمير ارتباطاً وثيقاً بجهد النفس وتنقيتها من كل الشوائب التي تنافي إخلاصها لخالقها في جميع ما تأتي وما تذر. وعن الغاية من جهد النفس يقول: "... وهو أن لا يكون إلا في سبيل الله أي لأجل معرفة الله وإدخال النفس تحت الأوامر الإلهية والاطمئنان والإذعان لأحكام الربوبية لا لشيء آخر من غير سبيل الله، كمن يجاهد نفسه بالرياضات الشاقة لأجل طلب جاه عند الملوك أو لصرف وجوه العامة إليه، أو حصول غنى، أو نحو ذلك من الحظوظ النفسية".³¹

فالتصوفة هم من كانت "حركاتهم وسكناتهم لله، وفي الله و بالله فكان لهم حضور مع الله -تعالى- و مراقبة ونية صالحة في حالة بيعهم وشرائهم وتجارهم وجميع تصرفاتهم".³²

ويعتبر الأمير عبد القادر أن الذي يعد نفسه من المتصوفة، وخرج عن أمور الشرع ولم يعظم حرمتها فهو كاذب فيما ادعى، غير سالك سواء السبيل: "وكل من ادعى أنه شم رائحة من طريق أهل الله تعالى ولم يزد للشرع تعظيما وللسنة اتباعا فهو مفتر كذاب".³³

من هنا نخلص إلى أن التصوف عند الأمير عبد القادر ليس نظريا مجردا بل هو تطبيقيا أكثر منه نظريا وكذلك نجده قد ربط في تعريفه للتصوف بين الشريعة والحقيقة ويصدق عليه قول "شكيب أرسلان" من أن الأمير في تصوفه: "لا يكتفي به نظرا حتى يمارسه عملا، ولا يحن إليه شوقا حتى يعرفه ذوقا".³⁴

المبحث الثاني: المقامات

المطلب الأول: المقامات عند الصوفية

يقسم ابو نصر الطوسي المقامات إلى سبع وهي: التوبة، الورع، الزهد، الفقر، الصبر، الرضا والتوكل، و يعرف المقام بقوله: "مقام العبد بين يدي الله عز وجل، فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات، والانتقطاع إلى الله عز وجل".³⁵

المطلب الثاني: المقامات عند الأمير

الفرع الأول: مقام التوبة

يرى الأمير أن مقام التوبة "هو الأساس لسلوك الطريق والمفتاح للوصول لمقام التحقيق، فمن أعطيه أعطي الوصول ومن حرمه حرم الوصول".³⁶

الفرع الثاني: مقام الزهد

يعرف الأمير الزهد بقوله: "هو صرف القلب عن الرغبة فيما سواه تعالى - و فيما سوى ما يقرب إليه لا غير".³⁷ من هنا نلاحظ أن الأمير لا يرى أن الزهد هو أن يتخلى السالك عما في يديه. لأن له تصورا مخالفا لما أورده بعض الصوفية من أن الزهد يكون في الاملاك، لأن الزاهد عند الأمير إذا زهد في شيء قدره الله له فسيأخذه سواء رغب في ذلك أو لم يرغب، وإذا زهد في شيء ليس بمقدر له "فزهد في ماذا؟ أيزهد في قسمة غيره؟ فما قدر لفكيك أن يمضغه، لا بد أن يمضغه".³⁸

الفرع الثالث: مقام الفقر

نجد الأمير في شرحه للآية الكريمة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (سورة فاطر، الآية : 15)، يقر أن كل الناس مفتقرون إليه سبحانه وتعالى، ويفسر الفقر بمعنى طلب الناس من الله ما يحتاجون إليه ويرغبون فيه، ويعطي مثالا لذلك بعدم المخلوقات وإيجادها من طرف الخالق، "تطلبون منه حالة الإمكان والعدم إعطاء الوجود لكم وبعده طلبكم استمرار الوجود وما به بقاء الوجود لكم".³⁹ فالأمير لا يرى أن الفقر هو خلو الأيدي من الأملاك فقط بل يعطي له معنى أوسع وأشمل وهو افتقار الناس في حالتي عدمهم ووجودهم إلى الله بوصفه موجدهم من العدم، وحافظهم في وجودهم.

الفرع الرابع: مقام الصبر

يعتبر الأمير " الصبر من المقامات التي لا يفارقها العبد إلى الممات، وهو عام على الخير والشر إذ الكل ابتلاء وفتنة وتمحيص.⁴⁰ والصبر على الشر معروف عند الناس، أما الصبر على الخير فهو ان لا يحيد به عن الطريق المستقيم، ويلزم فيه منهج الاعتدال.⁴¹

الفرع الخامس: مقام التوكل

اتخذ الأمير من الحديث الشريف الذي رواه مسلم من أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مر بقوم يؤثرون النخل فقال لهم " لو لم تفعلوا لصلح...⁴² النواة الرئيسية لبني عليها مفهومه للتوكل. فيرى أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يرد منهم ترك الأسباب وإنما أراد أن يعرفهم أن الله هو الفاعل الحقيقي، ويجب الاعتماد عليه لا على الأسباب بمعنى أنه " لا بد من الأسباب وجودا، والغيبة عنها شهودا".⁴³

فالأمير هنا يعتبر أنه يجب الأخذ بالأسباب ولكن دون اعتبارها الفاعل للنتائج، لأن الفاعل هو الله. وهكذا نجد الأمير يفسر التوكل بمعناه الصحيح والإيجابي، لا كما فهمه بعض المتصوفة من أنه التواكل وترك الأسباب.

و قد يكون الأمير هنا متأثرا بأبي حامد الغزالي، و خصوصا أن الغزالي من أوائل الذين تكلموا في التوكل و قالوا بقانون السببية. حيث أن الغزالي يرى أن التوكل غامض، و ذلك من حيث أن من اعتمد على الأسباب فقط فقد أشرك، و من حيث عدم رؤية الأسباب غير مقبول في العقل.⁴⁴ و يزيل الإشكالية بقوله: " و لا تكن في توكلك منتظرا للأسباب بل لمسبب الأسباب".⁴⁵ أما بخصوص الغاية من إيجاد الأسباب في الكون، فإن " مسبب الأسباب أجرى سنته بربط المسببات بالأسباب إظهارا للحكمة".⁴⁶

الفرع السادس: مقام الرضا

يرى الأمير أن من بين أنواع الآلام ما يكون به رفع الدرجات عند الله، " و هو ما يصحبه الرضى و يحصل به الترقى في درجات القرب، و هو خاص بمخاضة الخاصة من الأنبياء و الكُمَّل من ورثتهم".⁴⁷

المبحث الثالث: الأحوال

المطلب الأول: الأحوال عند الصوفية

الأحوال هي "ما يحل بالقلوب أو تحل به القلوب من صفاء الأفكار"⁴⁸، بمعنى انه لا دخل للعبد فيها وإنما هي هبة من عند الله سبحانه وتعالى.

يرى الطوسي أن هناك عشرة أحوال هي: المراقبة، القرب، المحبة، الخوف، الرجاء، الشوق، الأنس، الطمأنينة، المشاهدة، اليقين.

المطلب الثاني: الأحوال عند الأمير

الفرع الأول: حال المراقبة

يرى الأمير أن المراقبة و الحضور مع الله تعالى يؤدي إلى طهارة القلب و أن النعم إذا لم تشغل القلب عن مراقبته لربه فإنها لا تضر. إلا أننا نجدده يبالغ و يذهب مذهبا مغاليا عندما يقرر أن المعاصي إذا لم تشغل القلب عن مراقبته لله فلا يبالى بها.⁴⁹

الفرع الثاني: القرب

يقسم الأمير القرب إلى قرب النوافل و قرب الفرائض ، فقرب النوافل هو " أن يشهد العابد نفسه حال العبادة بل و في غيرها من سائر الأفعال و الإدراكات ، أنه بالله ، بمعنى أن يشهد الحق تعالى - قدرته وسمعه وبصره ... فلا يرى فعلا له و لا لغيره و لا إدراك إلا بالله فيكون العبد ظاهرا و الحق باطنا".⁵⁰

أما قرب الفرائض فهو أن " يشهد العابد نفسه و قواه الباطنة و أعضاؤه الظاهرة آلة الحق ، و الحق - تعالى - المصرف لها المؤثر بها فيسمع بسمع العبد و يبصر ببصره و يتكلم بلسانه إلا آخر الإدراكات فيكون الحق - تعالى - ظاهرا و العبد باطنا".⁵¹

الفرع الثالث: المحبة

حب الأمير ليس حسيا بل روحيا، ولا ينظر إلى الجمال في الكائنات إلا بوصفه مستمدا من جمال الذات العلية:

نظرت إليه والمليحة تحسبن نظرت إليها لا ومبسمه الأضوا
ولكن جمال من أحب تبدا لي فها أنا ذا أبدي إليه به الشكوى⁵²

الفرع الرابع: الخوف

يرى الأمير أن الخوف نوعان:

الأول هو "خوف من الله -تعالى- وهو خوف الإجلال والتعظيم والهيبة... وهو خوف العارفين الموحدين بالتوحيد الحقيقي... فهم لا يخافون إلا الله ولا يتقون إلا الله..."⁵³

أما الثاني فهو "خوف من مخلوقات الله-تعالى- كالخوف من أعداء الإنس والجن ... وهذا الخوف ليس فيه هيبة ولا إجلال... وهذا هو خوف عامة المؤمنين من العباد والزهاد والصالحين".⁵⁴

الفرع الخامس: الرجاء

نجد الأمير في شرحه للآية الكريمة: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَحْدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (سورة الكهف، الآية: 110)، يربط بين الرجاء والحب فيقول: "يرجو يحب، فإنه لا يرجو إلا محب، ولا يُرجى إلا محبوب".⁵⁵

الفرع السادس: الشوق

يتشوق الأمير إلى الوصل من محبوبه، ويعتبر أن الوصل عيد بالنسبة له من الذات العلية التي سكر من محبتها، وإذا تجملت له أحس بالارتياح لمراها: ⁵⁶

أوقات وصلكم عيد وأفراح يامن هم الروح لي و الروح و الراح
يامن إذا اكتحلت عيني بطلعتهم وخفقت في محيا الحسن ترتاح

و كما يتشوق الأمير في بعده عن أحبابه، يتشوق كذلك في قربه منهم، وفي معرفته بهم: ⁵⁷

وفي بعدنا شوق يقطع مهجتي ولا تقطيع الخليل للشعر ميزانا
فيزداد شوقي كلما زدت قرينة ويزداد كلما بهم زدت عرفانا

الفرع السابع: الأنس

يرى الأمير أنه: "لا يكون أنس بالذات العلية أبداً، لعدم المناسبة والمجانسة. وإنما يكون الأنس ببعض الأسماء الجمالية".⁵⁸ ومن بين هاته الأسماء الجمالية: الرحيم، الغفور، المعطي. بمعنى أن الأنس يكون بما يتفضل به الله تعالى، على عباده من نعم ومغفرة وغير ذلك من جوده.

الفرع الثامن: الطمأنينة

يرى الأمير أنها: "الرجوع من الخلق إلى النفس، ومن النفس إلى الحق -تعالى-".⁵⁹ والمؤمنون هم الذين: "تطمئن قلوبهم وتأنس وتسكن من ألم الاشتياق وحرقة الحب، وقلقه بذكر الله إياهم، لا بذكرهم إياه".⁶⁰

الفرع التاسع: المشاهدة

يقر الأمير بأن الله يتجلى لمخلوقاته كلها، ولكن لا يشهده كل واحد إلا بحسب قابليته واستعداده، ويوافق الأمير شيخه ابن عربي في أن المشاهدة: "يقع فيها الإقرار والإنكار، ويشترط فيها تقدم علم بالمشهود".⁶¹

الفرع العاشر: اليقين

يعتبره الأمير عبد القادر: "مرتبة لا يقبل صاحبها الزيادة في مشهوده، وإن قبل زيادة الظهور والكشف".⁶² إلا أنه يفرق بين ثلاثة أنواع من اليقين وهي: علم اليقين، عين اليقين، حق اليقين. "فعلم اليقين يحتاج في إثباته إلى دليل، ويقبل التشكيك، وعين اليقين يحتاج إلى دليل ولا يقبل التشكيك، وحق اليقين لا يحتاج إلى دليل، ولا يقبل التشكيك".⁶³ و المكاشفات والأذواق الخاصة بالصوفية، تدخل ضمن حق اليقين.⁶⁴

المبحث الرابع: غايات التصوف و نتائجه عند الأمير

المطلب الأول: وحدة الوجود ووحدة الشهود والحلول

نظرية وحدة الوجود تقول بأنه: "لا موجود إلا الله ومع ذلك فتعدد بتعدد التعينات تعددا خفيفا واقعا في نفس الأمر، وهذا التعدد لا يوجب تعددا في ذات الوجود".⁶⁵

أما نظرية الحلول فإنها تعني "حلول الإله في العبد، أو اللاهوت في الناسوت".⁶⁶

ووحدة الشهود هي: "فناء للظواهر في الحق الواحد الأبدي".⁶⁷

بمعنى أن العابد يغيب في مشاهدة الحق عن مشاهدة الكون. فمثلا هناك نجوم بالليل، ولكن عندما تشرق الشمس لا نشاهدها، ولا يعني هذا ان النجوم ليست في السماء وإنما نور الشمس تجلى فلم يظهر معه نور لشيء آخر. وهكذا -ولله المثل الأعلى- لا يشاهد العبد في الوجود إلا الله.

والأمير يقر بأنه ليس من أهل الحلول وليس من القائلين بوحدة الوجود، فيقول: "واحذر أن ترميني بحلول أو اتحاد أو امتزاج أو نحو ذلك، فإني بريء من جميع ذلك، ومن كل ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم-".⁶⁸ إذن فالأمير في تصوفه متمسك بالكتاب والسنة، غير مبتدع، وإنما أقواله نابعة من واداته الإلهية ومن فهمه للكتاب والسنة يقول: "فإني فهمت منهما ما فهمت أنت وزدت عليك، وكلام الله وكلام رسوله -صلى الله عليه وسلم- بحر زخار، لا نهاية لمدلولاتهما ولا قرار".⁶⁹

إلا أن الهدف الأسمى للتصوف، وغايته الأساسية هي الولاية، فالولاية عند الأمير هي هدف عظيم ولا يتوصل إليها إلا بالمجاهدة، "لأن مالا يتوصل إلى الواجب إلا به، فهو واجب".⁷⁰ ويقصد بالواجب الأول الولاية، أما

اللفظة الأخيرة فيقصد بها جهاد النفس. ويرى الأمير عبد القادر أن الولاية التي تعني الخلوة والانقطاع إلى الله عز وجل أشرف الغايات وأسمائها.⁷¹ فما هي الولاية عنده؟

المطلب الثاني: الولاية

هي صفة لمن اصطفاه الله، ولم يكله لنفسه طرفة عين، وكذلك هي صفة لمن يطيع الله ويلتزم بأوامره.⁷² "ومن شرط الولي أن يكون محفوظا، كما أن من شرط النبي أن يكون معصوما".⁷³ ويتفق الأمير مع الصوفية في أن الولاية مكتسبة، ويعرف الولاية بقوله أنها: "القرب من الله -تعالى- برفع الحجب، وإخلاص العبودية إليه، وصدق التوكل عليه، والانخياش ظاهرا وباطنا إليه".⁷⁴ فالولاية بهذا المعنى عند الأمير هي ما كانت في مرضاة الله، والإخلاص له، لكي يحصل للعبد القرب من مولاه، وترفع عنه الحجب. إلا أن الأمير يرفض أن تكون الولاية وسيلة للتباهي أو لغرض دنيوي، يقول أنه: "إذا قصد بالعمل الولاية التي معناها ظهور الخوارق والكرامات، وانتشار الصيت وإقبال الخلق، فهذا لا يشك أحد أنه... شرك".⁷⁵

والأمير يقسم الولاية إلى ثلاثة مراحل: البداية، الوسط، النهاية. يقول: "بداية الولاية بمعنى التوفيق لطلبها، موهبة، لأنها حال، والأحوال مواهب، ووسطها اكتساب، لأنه جد واجتهاد، وارتكاب أهوال، ورياضات ومجاهدات وآخرها... مواهب. والقرب من الحق -تعالى- قرب معنوي، وليس ذلك إلا برفع حجاب الجهل".⁷⁶ فالولاية بهذا المعنى هي من توفيق الله وإمداده، ولكن للعبد شطر فيها، وذلك من حيث قيامه بالمجاهدات، وترويض نفسه على الطاعات، وبذلك يصل إلى الهدف الأسمى، ألا وهو القرب من الله تعالى، و هنا نرى أنّ الأمير عبد القادر يعتبر الولاية الحقبة مجردة عن جميع مطامع النفس و يتحقق فيها معنى التجرد التام و الإخلاص الحق لله سبحانه و تعالى وحده.

- خاتمة:

ختاما نصل إلى النتائج التالية:

- 1- الأمير عبد القادر في ذكره لأقوال شيخه ابن عربي وتبنيه لها لم يكن مقلدا، حيث أننا نجد أنه يخالفه في كثير من المواقف ومن هنا تتبين لنا استقلالية التجربة الروحية عند الأمير عبد القادر. و اعتماد الأمير على مؤلفات شيخه وأقواله نابع من إرادته التعبير عن تجاربه الروحية الداخلية خصوصا إذا كان سبق لها من غيره، لأن الصوفي إذا عايش حالة خاصة به، وأراد التعبير عنها، عبر عنها بأقوال السابقين عنه ممن عايشوا حالة مماثلة لها، خوفا من أن يعبر عنها بوجه يؤدي إلى الكفر فيضل ويضل.
- 2- الأمير عبد القادر لم يكن من أولئك الصوفية الذين يتهربون من المشكلات التي تعانيتها أمتهم، بل كان سباقا متى دعت أمته أو احتاجت إليه وخير دليل على ذلك أن الأمير عبد القادر عندما ناداه الواجب الوطني لم يتأخر عن حمل لواء الجهاد للدفاع عن أرضه وأمته وحتى بعد استسلامه فإنه كان يهب متى دعاه الواجب سواء كان

واجبا نحو وطنه أو نحو الإنسانية جمعاء وخير مثال على ذلك موقفه من فتنة دمشق، التي تعد عملا إنسانيا عظيما. وبهذا يتبين أن تصوفه تصوف عملي معاش للواقع وإيجابي وليس تقوقعا وانعزالا سلبيًا.

3- الأمير عبد القادر كان من أصحاب التصوف السني، وليس من أصحاب الشعوذة والتصوف الخارج عن إطار الشرع، ويتجلى ذلك في نفيه للاتحاد والحلول وإقامته لمفهوم التصوف على أساس اتباع الكتاب والسنة.

4- الولاية عند الأمير عبد القادر هي صفة لمن اصطفاه الله، ولم يكله لنفسه طرفة عين، وكذلك هي صفة لمن يطيع الله ويلتزم بأوامره. ويتفق الأمير مع الصوفية في أن الولاية مكتسبة كما يرفض أن تكون الولاية وسيلة للتباهي أو لغرض دنيوي، ومن خلال هذا المعنى للولاية نجد أنها من توفيق الله وإمداده، إلا أن للإنسان يد فيها، من خلال مجاهداته وترويضه لنفسه على العبادات والطاعات، بغية الوصول إلى أسمى الغايات، والمتمثلة في القرب من الله تعالى، وهو الأمر الذي يتجلى لنا من خلاله نزاهة الغرض عند الأمير عبد القادر في أسمى غايات التصوف ألا وهي الولاية.

الهوامش:

- 1 - الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبيه الغافل، تحقيق وتقديم ممدوح حقي، د.ط، د.ن، د.م، د.ت، ص 27.
- 2 - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة وتقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط2، 1982، ص 39.
- 3 - الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر، شرح و تعليق: ممدوح حقي ، دار البقطة العربية بيروت، ط 2، 1964، ص 932.
- 4 - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص 44.
- 5 - يحي بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب تونس- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط 3 ، 1983، ص 41.
- 6 - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص 44.
- 7 - الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ص 932.
- 8 - جواد المرباط، التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري، دار البقطة العربية دمشق-سوريا، د ط، 1966، ص 27-28.
- 9 - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص 47.
- 10 - يحي بو عزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث قسنطينة الجزائر ، ط1، 1980، ص 16.
- 11 - الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر 155.
- 12 - المصدر نفسه، ص 163.
- 13 - أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر (1808-1847)، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط1، 1983، ج1، ص 338.
- 14 - الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ص 449.
- 15 - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص 248.
- 16 - الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري تحفة الزائر، ص 500.
- 17 - المرجع نفسه، ص 559.
- 18 - المرجع نفسه، ص 594.
- 19 - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص 278.
- 20 - فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د ط، 1985م، ص 175.
- 21 - شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ص 286.

- 22 - الأمير عبد القادر الجزائري ، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، شرح و تحقيق ممدوح حقي، دار البقطة العربية بيروت، ط 3، 1965م . ص 197.
- 23 - المصدر نفسه، ص 199-200.
- 24 - الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر، ص 827.
- 25 - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، نسخ وتصحيح رنولدالن نيكلسون، مطبعة بريل ليدن، د ط، 1914، ص 25.
- 26 - المرجع نفسه و الصفحة نفسها.
- 27 - المرجع نفسه و الصفحة نفسها.
- 28 - عبد الرحمان بن خلدون، شفاء السائل لتهذيب المسائل، تعليق اغناطيوس عبده اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية بيروت، د ط، 1959، ص 34.
- 29 - المرجع نفسه، ص 35.
- 30 - المرجع نفسه، ص 39.
- 31 - الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، مراجعة وتصحيح لجنة من علماء دمشق، دار البقطة العربية دمشق سوريا، ط 2، 1966 - 1967، ج 1، ص 141.
- 32 - المصدر نفسه، ج 1، ص 45.
- 33 - المصدر نفسه، ج 1، ص 34.
- 34 - ستودارد لوثرروب، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان، دار الفكر بيروت، ط 3، 1971م، ج 1، ص 173.
- 35 - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، ص 41.
- 36 - الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، ج 1، ص 430.
- 37 - المصدر نفسه، ص 370.
- 38 - المصدر نفسه، ص 370-371.
- 39 - المصدر نفسه، ص 451.
- 40 - المصدر نفسه، ص 415.
- 41 - المصدر نفسه و الصفحة نفسها.
- 42 - أبو الحسين مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، مطبعة عيسى البابي الحلبي و شركاه القاهرة، ط 1، 1991، ج 4، رقم الحديث: 2363. ص 1836.
- 43 - الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، ج 1، ص 95-96.
- 44 - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار القلم بيروت لبنان، ط 1، د.ت، ج 4، ص 225.
- 45 - المرجع نفسه، ج 4، ص 253.
- 46 - المرجع نفسه، ج 4، ص 263.
- 47 - الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، ج 2، ص 523.
- 48 - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، ص 42.
- 49 - الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، ج 1، ص 310.
- 50 - المصدر نفسه، ص 302-303.
- 51 - المصدر نفسه، ص 303.
- 52 - المصدر نفسه، ص 23.
- 53 - الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، ج 1، ص 288-289.
- 54 - المصدر نفسه، ص 289-290.
- 55 - المصدر نفسه، ص 330.

- 56 - المصدر نفسه، ص 16.
- 57 - المصدر نفسه، ص 21.
- 58 - المصدر نفسه، ص 102.
- 59 - الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف، ج 1، ص 251.
- 60 - المصدر نفسه، ص 251.
- 61 - المصدر نفسه، ص 374.
- 62 - المصدر نفسه، ص 491.
- 63 - الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف، ج 2، ص 491.
- 64 - المصدر نفسه، ج 2، ص 491.
- 65 - قمر كيلاني، في التصوف الإسلامي مفهومه وتطوره وأعلامه، المكتبة العصرية للطباعة والنشر مطابع سميا بيروت، د ط، 1962، ص 105-106.
- 66 - المرجع نفسه، ص 111.
- 67 - المرجع نفسه، ص 152.
- 68 - الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، ج 2، ص 869.
- 69 - المصدر نفسه، ج 2، ص 869-870.
- 70 - الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف، ج 1، ص 135.
- 71 - المصدر نفسه، ج 1، ص 195.
- 72 - أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، شرح زكريا الأنصاري، دار الكتاب العربي، بيروت، د ط، د ت، ص 117.
- 73 - المرجع نفسه و الصفحة نفسها.
- 74 - الأمير عبد القادر الجزائري: المواقف، ج 1، ص 134.
- 75 - المصدر نفسه، ج 1، ص 135.
- 76 - المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

قائمة المصادر و المراجع:

- القرآن الكريم.
- صحيح مسلم.
- 1 - الأمير عبد القادر الجزائري، المواقف في التصوف والوعظ والإرشاد، مراجعة وتصحيح لجنة من علماء دمشق، دار البيقظة العربية دمشق سوريا، ط 1966، 2 - 1967، ج 1 و 2.
- 2 - الأمير عبد القادر الجزائري، ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، تحقيق ممدوح حقي، دار البيقظة العربية بيروت، ط 1965، 3م.
- 3 - الأمير عبد القادر الجزائري، ذكرى العاقل وتنبه الغافل، تحقيق ممدوح حقي، د. ط، د. ن، د. م، د. ت.
- 4 - أبو القاسم عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية، شرح زكريا الأنصاري، دار الكتاب العربي بيروت، د ط، د ت.
- 5 - أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار القلم بيروت، ط 1، د ت، ج 4.
- 6 - أبو نصر سراج الطوسي، اللمع في التصوف، نسخ وتصحيح رنولدال نيكلسون، مطبعة بريل ليدن، د. ط، 1914م.
- 7 - أديب حرب: التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر (1808-1847)، المؤسسة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط 1، 1983، ج 1.
- 8 - الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري، تحفة الزائر في تاريخ الجزائري والأمير عبد القادر، تعليق ممدوح حقي، دار البيقظة العربية بيروت، ط 2، 1964م.

- 9- جواد المرابط ، التصوف والأمير عبد القادر الحسني الجزائري، دار اليقظة العربية دمشق سوريا، د ط، 1966.
- 10- ستودارد لوثرروب، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة عجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان، دار الفكر بيروت، ط 3، 1971م، ج 1.
- 11- شارل هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط 2، 1982م.
- 12- عبد الرحمان ابن خلدون: شفاء السائل لتهذيب المسائل، تعليق إغناطيوس عبده خليفة اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية بيروت، د ط، 1959م.
- 13- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، د ط، 1985م.
- 14- قمر كيلاي، في التصوف الإسلامي مفهومه وتطوره وأعلامه، المكتبة العصرية للطباعة والنشر مطابع سميا بيروت، د ط، 1962م.
- 15- يحيى بوعزيز، الأمير عبد القادر رائد الكفاح الجزائري، الدار العربية للكتاب تونس- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط 3، 1983م.
- 16- يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر والعشرين، دار البعث للطباعة والنشر قسنطينة الجزائر، ط 1، 1980م.